

الأمير مصطفى الشهابي عالم وأديب

على مفوح « قاسيون » جبل دمشق الاشم، حيث يرف النسيم
ويشرف على الغوطة الخضراء، قام بيت منيف كنا نأتيه حيناً بعد
حين فنجدته محراباً للفكر والمعرفة، وما من عالم يزور دمشق الا كان
عنده احد المعالم المنشودة التي ينبغي ان لا يفوته الامام بها.

لم يكن ذلك البيت صومعة راهب متعبد او برجاً من عاج اعتزل
صاحبه الناس وعكف على التأمل والتزهد، وانما كان دارة علم
وادب مجتلي للطبيعة والحياة يشع نورا على دمشق كما تشع
الشمس التي تملأ « قاسيون » وتنحدر الى ضفاف بردى حتى تعم
الغوطة ومغانها.

في هذه الدارة الضاحية اقام الامير مصطفى الشهابي عاكفا في
بحث وتأليف او على نقد وتحقيق، فما زرناه كدأبنا الارابنا بين يديه
أوراقا يجبرها او كتباً يطالعها، او محاضرة يعدها لندوة ثقافية او مجلة
علمية كبرى.

ولكن عرف هذا الامير بالشمم واصالة النسب الذى يصله بجدوده الشهابيين القرشيين امراء لبنان وحكام بقاع فى الشام، فان تواضع العالم الخبير ولباقة الدبلوماسية المطبوع يتجلىان فى حديثه ومجلسه، ولا يستطيع عارفه او زائره الا ان يؤخذ بثقافته المتعددة الجوانب، وحكمته فيما يعالج من قضايا وطنية واجتماعية، وقد يخيل الى من يلقاه على سمته واريحيته انه من الموسرين، والواقع انه يزدري المال ويؤثر الكرامة والخير العام، ويعجب لمن يضيع العمر والذمام فى سبيل الثراء.

لقد جمع الامير مصطفى بين الثقافتين العربية والغربية جمع احاطة وتمكن، وحمل من فرنسة شهاداتها الجامعية فى الهندسة الزراعية التى احبها منذ صباه، وفى استنبول حيث تلقى ثقافتها التركية كانت تهتاجه الوطنية التى تنسماها فى نشأته وحماءه، وخفقت معانيها فى حسه ومراده، فيا وقفات للفتى الامير على ضفاف البوسفور كان يتنور فيها اخبار مصر والشام ويهتز لشعره قاله حافظ وشوقى فى ذكر الكنانة ودارات امية، فيزداد حماسة وحنينا الى موعد التحرر والخلاص من نير الاستبداد والاستعمار.

ولم يكن ذلك بدعاً فى وطنيته الاصلية، فقد ثار اخوه الامير عارف الشهابي على الحكم التركي العاشم مع الشهداء الاوائل الذين طوى جسامهم ظلم جمال السفاح، لكن ارواحهم بقيت حوامة على الحمى مدومة فى آفاق العرب، تبعث الحمية والحرية فى الجيل بعد الجيل، وما كاد الامير مصطفى الشهابي ينهض

بالمناصب الكبرى حتى اثمر علمه وازدهر أدبه، ولمس القوم آثاره في الانشاء والاصلاح، ومن ثم اخذ ينشر المؤلفات الزراعية التي تدرس بعلمها، وكان استقصاؤه لكل جديد او قديم فيه موضع العجب والاعجاب لدى متبعي تأليفه التي امتازت بمناهجها وصحة مصطلحاتها وسداد حجتها وغايتها، حتى شهد له اساطين هذا العلم بالمعرفة الشاملة فيه، وعدوه اكبر عالم زراعى فى الشرق العربى، وكان لزاما عليه فى نقل علوم الزراعة الحديثة الى العربية ان يتحرى اصلح الالفاظ فى معالجتها وفى كتب النبات والحيوان والزراعة القديمة، اما النباتات التي كان العرب يجهلونها فقد ابتكر لها الامير اسماء عربية وذلك بالرجوع الى اصول الاسماء العلمية الدالة على هذه النباتات وترجمة تلك الاسماء بمعانيها الاصلية او تعريبها اذا كانت تدل على اعلام، وبذلك اغنى الفصحى بمئات من الالفاظ التي ابتكرها، ونشر كثيرا منها فى « المقتطف » ومجلة « المجمع العلمى » بدمشق، ثم ضمها الى معجمه العظيم الذى كان حدثا جديدا فى دنيا هذا العلم الذى ينبغى للبلاد العربية ان توليه عنايتها الاولى، لان الارض التي كان اندريه جيد يقدر فيها اغذيتها ويستنبط منها ينابيع العبقريّة الانسانية هي التي تحنو على الانسان حنو المرضعة على القطيم، ويقدر ما يؤدي اليها من حفاوة ورعاية يتلقى المرء منها وفاء وخيرا، فاذا كان العلامة الشهابي قد سلخ الشباب والكهولة فى سبيل هذه الارض، يدرس ويبحث من اجلها، ويجهد ويحقق فى سبيلها، فانما كان طبيبا وحييا الى الارض التي هي امنا الاولى، واليه ترجع فكرة العناية بالفلاح الذى ارتبط بالارض كادحا

ومنحها عمره وكده، فقد سعى الى بيعه من املاك الدولة حين كان مديراً عاماً لها، على ان يؤدي الثمن مجوما ودفعات، وبذلك تتكون الملكية الزراعية الصغيرة.

وقد ترك الامير مصطفى الشهابي في اكثر المناصب التي تقلدها آثاراً لا يمحوها الزمان، منها انشاء دار الكتب في اللاذقية ورعاية دار الكتب في حلب اذ كان والياً ومحافظة مرتين في كل من المدينتين، ولا يزال يرفدهما باهتمامه، وقد أولى العربية عناية في الديوان ومرافق الناس، فاتخذ قراراً بان تكون عناوين المتاجر والمصانع بالعربية الصحيحة، واذا شاء احد ذويها ان يكون الاعلان او العنوان بلغة أجنبية اقتضى ان يكون هذا تحت العربية أو على شمالها وبحروف اصغر من حروف اللغة الرسمية، وشاعت هذه الامنية الشهابية وتحققت في المحافظات السورية الى جنب الافلام السنمائية الاجنبية التي كانت تقتصر على لغتها في العرض والاداء، وذلك منذ بضعة عشر عاماً.

وراجت السياسة في سورية رواجاً عجبياً، فلم يتبع الامير اليها سبيلاً ولا ارتقب السوانخ المواتية، لانه كان وطنياً نزيهاً، ولم يكن وصولياً او انتهازياً، على شاكلة كثير ممن احترفوا السياسة واصطنعوا للمال والظهور، وقد تأبى على الوزارة حتى اعترف الفرنسيون بالغاء الانتداب وحق السوريين في الاستقلال، على ان هذه الوطنية في الامير الشهابي ليست مرجلة او عابرة، فقد تجمت في اصوله وشب عليها، وقد ثار اخوه على الطغيان والعدوان حتى

راح شهيدا، اما الامير مصطفى فقد عمل سرا وعلانية على تحقيق الحرية والجلء، لكنه يؤثر العمل الصامت والرأى قبل الشجاعة فى ممارسة شؤون الدولة، لا سيما فى الملمات والصدقات، وكأنه ربان حاذق بتفادى الاعاصير حتى يصفو الجو ويهدأ الموج، وعندئذ يصل بالامانة الوطنية الى شاطئ السلامة. ومهما دارت الضجة وتقول المتقولون فلا يعبأ هذا الربان الابالذفة التى احكم قيادتها، وليست وجهته الا مصلحة الشعب ومجد الوطن، وقد ازدادت على الثقة والمرانة تجارب الامير ومعرفته بقضايا الشرق والغرب وما يجول فى آفاق الدول والساسة من مداورات ووجهات، وقيضت له درايته ان يدرس تاريخ الاستعمار واساليب المستعمرين ويبحث الوعى العربى واليقظة الحديثة فى التحرير والاستقلال، فألف كتابا قيما فى هذا الموضوع كان من اوثق المصادر والمطبان للمشكلة العربية وعلاقة الشرق بالغرب.

لقد بدت فى بعض افذاذ المعاصرين بمصر والشام ظاهرة فى شمول الفكر والمعرفة وتعدد المواهب والمزايا تردنا الى سيرة فئة قليلة من علمائنا الاقدمين كابن سينا وابن خلدون والجاحظ والدينورى وامثالهم ممن كانوا موسوعيين فى ثقافتهم، وقد أتاهم الله عبقرية اتسعت لالوان من العلم والادب، وكان الامير مصطفى الشهابى من هؤلاء المعاصرين الذين تعددت فيهم الميزات وواتاهم الفكر والمزاج، الى مراسهم ثقافة اختصوا بها، فهو الى علمه الاولى لغوى محقق واقف على اسرار الضاد، ونحات لفظى مبتكر لالوف من

الكلمات الزراعية والحيوانية، لا يفتر عن البحث ولا نمحيص والنقد في مجلة المجمع العلمي بدمشق، كما ان له تتبعا مرموقا في مجمع فؤاد الاول، اذا انه عضو مراسل فيه كما هو عضو عامل في المجمع بسورية.

اما ادب الامير فضرب من الترسل والجزالة، يتسم بطابع الدقة والتمعق، ويشف عن موهبة اصيلة، وقد اودع موضوعاته المتنوعة صدى خواتمه وفلسفته في النفس والمجتمع. والامير الشهابي مجدد في اسلوبه وتسميقه، متتبع للحصاد الفكري والادبي في الشرق والغرب، ولم يخل ادبه من الشعر الذي قاله على سجيته وطبعه، لكنه على روعته ورونقه مقل فيه، ولو جمعت آثاره التي نشر أكثرها في صحف مصر والشام وحالت مشاغله دون اعدادها للمطبعة لجاة في عدة كتب.

ان عهد الأمير مصطفى بالدبلوماسية يرجع إلى تمرسه بالمناصب العليا، ثم بالوزارة، وقد كانت لباقة وحكمته ملموستين في كل مهمة قام بها، حتى عهدت اليه الجمهورية السورية بان يكون وزيرها المفوض بمصر التي احبها واحبته وعرفها وعرفته منذ ربع قرن عالما ثبتا واديبا موهوبا يحاضر في ارقى ندواتها، وينشر في كبريات صحفها، داعيا الى خير العروة ولغتها، وحين جاء مصر وزيرا لبلاده استبشرت الكنانة بالوجه الذي عرفته من قبل سفيراً فكريا قبل ان يأتيها سفيراً دبلوماسياً، وهو اليوم في هذا التمثيل خير

من بوثق، الروابط القديمة والحديثة بين مصر وسورية، اذا ان العلماء
والمفكرين اذا جمعوا الحكمة والكياسة فى الحكم والسياسة كانوا
اهدى سبيلا وادنى الى تحقيق الخير والوثام، ولو احصينا سيرة
المصلحين فى تاريخ الامم لوجدنا اكثرهم كانوا من ذوى الفكر
والرأى، وما ضل الناس الا حين ولى امورهم من لم يتقوا الله ولم
يقيموا للحقيقة والمعرفة وزنا. فاذا تحدثت الى قراء « الثقافة » بهذا
الفصل عن الامير مصطفى الشهابي مستفتحة بذكره فيما اعددت
من فصول عن طائفة من اعلام العلم والفكر والاصلاح بمصر
والبلاد العربية، فانما اصور مطلع كوكب سورى اخذ اليوم يتلألأ
فى سماء الكنانة بين كواكبها التى يمتلىء بها نهر المجرة منعكسة
اضواؤه على وجه النيل.

* * *